اللُّغة العربيَّة الفصيحة: هويَّة ومواجهة تحدِّيات

أ.د. عبد المجيد زراقط

في سبيل تحديد هويَّة اللُّغة، أيَّ لغة، يقول الشاعر:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده   فلم تبقَ إلاَّ صورة اللَّحم والدَّم

وإن يكن اللِّسان أداة الفؤاد في التعبير والاتِّصال بالآخر، وبالذَّات في تراثها الأدبي والعلمي والتاريخي، وبتقاليدها، وأداته في التعلُّم والتفكير والإبداع الأدبي... إن يكن الأمر هكذا، يكن اللسان الفتى كلَّه، وليس نصفه فحسب.

ويقول العلم: "اللُّغة، وهي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفر، تنتج من الاتصال الاجتماعي، ولهذا صارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بوجودها إلى قيام المجتمع"[1].

وهذا يعني أنَّ اللُّغة، أيَّ لغة، ليست المكوِّن الأساس لشخصيَّة الإنسان فحسب، وإنَّما هي المكوِّن الأساس لهويَّة الأمَّة، أو القوم، كما قال ابن جني: اللُّغة "أصوات يعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم"[2].

وتتميَّز اللُّغة العربيَّة الفصحى، من أيِّ لغة أخرى، بعدَّة مزايا، نذكر منها ما يتعلَّق بموضوع هذا الحديث:

1. إنَّها لغة الوحي الإلهي، بها نزل القرآن الكريم، فكانت اللُّغة المختارة باختيار هذا الوحي، جاء في القرآن الكريم: ﴿***إنَّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلَّكم تعقلون***﴾ [الزخرف/3].
2. تمثَّلت فيها معجزة الإبداع اللغوي – الأدبي، فكانت لساناً مبيناً، ولهذا وصفت في الآية الكريمة: ﴿***وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين***﴾ [النحل/103].

وفي هذا الصَّدد يقول حافظ إبراهيم على لسان اللغة:

وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آي به وعظاتِ

---

[1] فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الداخلي ومحمد القصَّاص، القاهرة، 1972، ص. 35.

[2] ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، ط. 2، 33/1.

3. إنَّها لغة العبادة، ولغة مصدري التَّشريع لدى المسلمين: القرآن الكريم والحديث الشريف، ما يعني أنَّها ينبغي أن تُتقن، وتجاد قراءتها وفهمها والتعبير بها...، وهذا مظهر من مظاهر الوحدة بين المسلمين أيّاً تكن أعراقهم.

4. حفظ هذه اللغة وحمايتها أمر ديني عقدي، أكَّد الله، سبحانه وتعالى، هذا الأمر بقوله: ﴿***إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون***﴾ [الحجر/9]، وذكر أنَّه يصطفي، في كلِّ عصر، مَنْ يحفظ كتابه: ﴿***ثمَّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا***﴾ [فاطر/32].

5. إنَّها المكوِّن الأساس للهويَّة العربيَّة، ولعلَّها العامل الوحيد الذي يوحِّد العرب في هذا الزَّمن الذي لم يتبق، لدى العرب، فيه وحدة في أيِّ شيء إلاَّ في اللُّغة...، وتالياً في الثقافة.

وقد أدرك الغرب الاستعماري هذه الحقيقة، فبذل جهوداً منذ بدايات عصر النَّهضة، وما زال يبذل هذه الجهود، من أجل إلغاء هذا العامل...، ولعلَّنا لا نحتاج إلى ذكر ما قام به، في هذا المجال، لأنَّه معروف، لكننا لن نغفل ذكر ما يقوم به العدوُّ الإسرائيلي من طمس للهوية العربية لفلسطين والفلسطينيين، بوسائل كثيرة أبرزها محاربة اللُّغة العربية، محاربة تدخل اليوم حيِّز التشريع؛ إذ يبحث الكنيست الإسرائيلي مشروع قانون يقضي بإلغاء اللُّغة العربيَّة، بوصفها لغة رسميَّة، وفي هذا الصَّدد يقول الكاتب إياد البرغوثي: "إنَّ تهميش اللُّغة العربيَّة مركَّب مركزي في سياسة إسرائيل الهادفة إلى محو حضور الفلسطينيين في الحيِّز العام، وطمس هوية المكان العربيَّة... وعندما نفرض استخدام اللغة العربيَّة يجري تشويهها وترجمتها بطريقة مستفزَّة مثل كتابة أسماء المدن العربيَّة حسب اللفظ العبري، مثلاً عكا تصير عكو، واللِّد تصير لود..."[3].

ويذكِّر هذا الصَّنيع بمفارقات محزنة تحدث عندنا، ومنها، على سبيل المثال، أن كثيراً من أصحاب المحلات والشركات، عندنا، يشوهون الأسماء العربيَّة ويمسخونها، فاسم ربيع عوض، مثلاً، نقرأه على لافتةٍ "رابيه آودكو...".

---

[3] الأخبار (جريدة لبنانية)، العدد 1354، 2011/3/4، ص. 32.

إنَّ خطر فَقْد الهوية يزداد في عصر العولمة الذي يتم فيه القضاء على خصوصيات الشعوب، وعلى قدراتها على الإنتاج. للعولمة إيجابياتها، وليس من خشيةٍ منها إن كنَّا قادرين وفاعلين، وفي هذا السبيل ينبغي أن نسعى.

6. إنَّها تمتلك القدرة الذَّاتيَّة على القيام بوظائف اللُّغة الحيَّة...، وهذه حقيقة تؤيِّدها أدلَّة أوَّلها أنَّها لغة الإعجاز القرآني، وهو إعجاز لغوي ودلالي، وثانيها أَنَّها لبَّت الحاجات الحضاريَّة طوال عصور ازدهار الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وغدت لغة عالميَّة طوال قرون من الزمان، وثالثها أنَّها نهضت، بعد عصور من السُّبات، لتواجه تحدِّيات العصر الحديث، وأبرزها محاولات الغرب الاستعماري للقضاء عليها في مسار سعيه إلى إبقاء بلاد العرب مزرعة مواد أوليَّة لصناعته وسوق تصريف لإنتاجه... ومن سبله إلى ذلك القضاء على ما يوحِّد الأمة، بوصفه مكوِّناً أساساً من مكوِّنات هويتها، وهو اللُّغة العربيَّة الفصحى.

وقد شبَّه حافظ إبراهيم سعي الغرب هذا بـ"لعاب الأفاعي" عندما قال:

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى   لعابُ الأفاعي في مسيل فرات

وجدت اللُّغة العربيَّة، وهي تواجه تحدّيات العصر الحديث، وعلى الرُّغم ممَّا ذكرناه من مزايا لها وقدرات، منَ يتَّهمها بالعجز والعقم، بدأ الاتهام في آونة مبكرة، ففي عام 1903 قال حافظ إبراهيم:

رموني بعقمٍ في الشَّباب وليتني   عقمت، فلم أجزع لقول عداتي

إضافة إلى تهمة العجز والعقم، نقرأ تهماً أخرى منها تهمة مركَّبة تعبِّر عنها خالدة سعيد، فتقول: "وهكذا، فإنَّ ارتباط اللُّغة العربيَّة بالقرآن الكريم أوجب تجريدها وإدخالها في مستوى الدَّهر والأبدي، وإنقاذها من الزَّمن التاريخي..، وكما سلمت اللُّغة من التغيير والتأثر باللَّهجات والتطوُّرات السياسيَّة والاقتصاديَّة، كذلك حصل بالنسبة إلى الأشكال الشعريَّة العربيَّة"(4).

---

(4) خالدة سعيد، حركية الإبداع، بيروت: دار العودة، 1979، ص. 10 و58.

ما يلفت، في هذا القول، أنَّ الباحثة تقدِّم، في غير مكانٍ من كتابها: "حركية الإبداع...، ما ينقض حكمها الصَّارم؛ وذلك عندما تتحدَّث، على سبيل المثال، عن "مناخ القمم الذي يكشف عن نظام العلاقات اللُّغوية عند المتنبي"، فإن يكن الأمر هكذا، فهل كان المتنبي مخلوقاً لا تاريخيَّاً، خرافيَّاً، نزل في سياق حركة الثقافة العربيَّة من زمان ومكان آخرين، أو أنَّه كان ثمرة تطوُّر تاريخي لم تسلم فيه اللُّغة من التغيير، ولم تسلم فيه الأشكال الشِّعريَّة من التغيير أيضاً؟ ثمَّ كيف ينتج المتنبي لغة شعريَّة وشعراً يرقيان إلى "مناخ القمم"، أي غير دهريين، بلغةٍ دهريَّة وفي سياقٍ شعري أشكاله دهريَّة؟

وإن كان لنا أن نناقش مسألة تغيُّر اللُّغة وأشكال الشعر، فإنَّنا نعود إلى الشعر العربي، ابتداءً من عصر صدر الإسلام، فنلاحظ أنَّ ألفاظه رقت، وأنَّ أسلوبه سلس وتنوَّع، وأنَّ بنية القصيدة تغيَّرت... وهذا يحتاج إلى تفصيل ليس المقام مقامه وإنَّما نحيل إلى الكتب المختصَّة في هذا المجال[5].

وقد لاحظ النقَّاد، قدامى ومحدثون، تغيُّر اللُّغة والشِّعر، فقال القاضي عبد العزيز الجرجاني من القدماء، على سبيل المثال: "فلمَّا ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدُّب والتطرُّف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كلِّ شيءٍ ذي أسماء كثيرة، فاختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلوب موقعاً، وإلى ما للعرب من لغات، فاقتصروا على أسلسها وأشرفها"[6]. وقال أدونيس من المحدثين: "لقد خلق أبو تمام لغة جديدة تغاير لغة الحياة اليوميَّة ولغة الحياة الشعريَّة السائدة، وهكذا جاءت معانيه مغايرة للمعاني المألوفة كذلك، ومن هنا جاء غموضه"[7]. كما أن أبا نواس، كما قرَّر غير باحث، وكما يقول هو، كان يصدر عن مقولته المشهورة: "ديني لنفسي ودين النَّاس للنَّاس"، وهذه المقولة، الدَّالة على التفرُّد في الإبداع الشعري، لغة وأشكالاً، تمثِّل جوهر الإبداع كما لا يخفى على أيِّ ملمٍّ بشؤون الأدب والنقد.

---

[5] راجع على سبيل المثال: محمد النويهي، قضية الشعر الجديد، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص. 74.

[6] القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، بيروت: دار المكتبة العصرية، ص. 18.

[7] أدونيس، مقدمة للشعر العربي، بيروت: دار العودة، ط. 3، 1979، ص. 45.

لم يكن الشاعر العربي يغيِّر فحسب، وإنَّما كان يميِّز بين الأساليب، ويختار الأسلوب الملائم ويسمِّيه، ويسوِّغ اختياره، هذا ما يمكن فهمه من الخبر الآتي الذي يروى عن بشار ابن برد، كما يمكن القول بوجود أسلوبين، أو بنيتين للعبارة آنذاك، هما أسلوب الأعراب وأسلوب المولَّدين.

استمع أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر إلى قول بشار:

بكَّرا يا صاحبَيَّ قبل الهجير إن ذاك النَّجاح في التَّبكير

فقال خلف لبشَّار: لو قلت، يا أبا معاذ مكان: "إنَّ ذاك النجاح في التبكير" "بكِّرا فالنجاح في التَّبكير" كان أحسن. فقال بشار: إنَّما بنيتها أعرابيَّة وحشية، فقلت (...) كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: "بكرا فالنجاح في التبكير" كان هذا من كلام المولَّدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فما كان من خلف إلاَّ أن قام فقبَّله بين عينيه[8].

تتمثَّل المشكلة، إذاً، ليس في اللُّغة، وإنَّما في واقع مجتمعي لا يتيح لأصحابها أن يكونوا منتجين على أيِّ صعيد، وعندما أنتجوا "الانتفاضة" و"المقاومة" دخلوا التاريخ الحديث، ودخلت هاتان الكلمتان اللُّغات الغربيَّة.

تتمثَّل المشكلة، إذاً، في فَقْد أصحاب اللُّغة الأكفَّاء المنتجين، وليس في اللُّغة، وهذا ما كان حافظ إبراهيم قد قاله قديماً.:

ولدت، ولـمَّا لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفَّاء وأدت بناتي

ويقول جرجي زيدان، وهو الذي خبر الكتابة بهذه اللُّغة، في غير نوع كتابي، في هذا الصَّدد: "المؤلِّف، أو الكاتب، الذي يحمِّل لغته مسؤولية ما يشعر به من نقص، في كتابته، هو مؤلِّف عاجز، وهو مسؤول عن هذا النَّقص، وهو مؤلِّف ينقصه الوعي اللُّغوي بقيمة لغته ودقَّتها وعمقها وحضارتها".

---

[8] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص. 272 و273.

إنَّنا نعيش مرحلة تواجه فيها الذات العربيَّة خطر فَقْد هويتها، فعلى المستوى اللُّغوي، يمكن القول: إنَّ شعباً يسلب لغته، أي اللُّغة التي تركها له الأجداد، يفقد هويته وقدرته على الإبداع، ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يبدع إلاَّ بلغته، وإن أبدع بلغةٍ أخرى، يعدُّ هذا الإبداع إنجازاً لتلك اللُّغة.

إنَّ كثيراً من الظَّواهر في الواقع تفيد أنَّ هذه الذَّات، أي الذَّات العربيَّة، تنظر إلى نفسها ولغتها نظرة دونيَّة، في الوقت الذي تنظر فيه إلى الآخر نظرةً فوقيَّة، يظهر ذلك في لغةٍ هجينة، أو كسيحة محشوَّة بمفردات وتراكيب أجنبيَّة يتمُّ التعامل بها يوميَّاً. ومن الطرائف ذات الدلالة التي تذكر في هذا المجال أنَّ سيِّدة كانت تتحدَّث في مجالسها بالفرنسيَّة مباهاة بذلك، وصودف أن صار لديها خادمة أفريقيَّة تجيد الفرنسيَّة أكثر منها، فتحوَّلت إلى التحدُّث بعربيَّة مزركشة بالفرنسيَّة والإنكليزيَّة.

ويظهر ذلك في لافتات المحلاَّت والشَّركات وأسماء الشوارع ومراسلات المصارف والشَّركات والهواتف النقَّالة، وفي واقع تعليمي لا تحظى فيه اللُّغة العربيَّة بما ينبغي أن تحظى به اللُّغة القوميَّة من عناية خاصَّة... علاوة على استخدام اللُّغة الأجنبية في تعليم العلوم والرِّياضيات، وعدم اهتمام المدارس التي تعتمد البرامج الأجنبية باللُّغة العربيَّة.

وإن كنت لا أحتاج إلى تقديم أمثلة لأن هذا الواقع معروف، فإنِّي أودُّ أن أشير، في ما يتعلَّق بالنظرتين:الدونية والفوقية، إلى دلالة اعتماد اسمين، أولهما منظمة "الأليسكو" وهي المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم، وقد أخذت اسمها المختصر من الترجمة الإنكليزية لاسمها الكامل، فهذه منظمة مسؤولة عن الدِّفاع عن اللُّغة العربية وحمايتها، تأخذ اسم شهرتها من اللُّغة الإنكليزية، وكذلك تفعل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، فتَّتخذ "أليسيسكو" اسم شهرة.

المشكلة ليست في القواعد، فهذه مرنة، فعلى سبيل المثال فحسب، يجور التَّرخُّص عند أمن اللَّبس، جاء في ألفية ابن مالك: "ولا يجوز الابتدا بالنَّكرة/ما لم تُفِد ك"عند زيدٍ نمرة"، ولا في تركيب العبارة؛ إذ إنَّ التجربة الحياتية كانت، طوال التاريخ، تطوِّع هذه اللُّغة لأدائها، وقد مرَّت بنا أمثلة على ذلك عندما تحدَّثنا عن صنيع المتنبي وأبي تمَّام وأبي نواس وبشار.

تتمثَّل المشكلة، في رأيي، في ثلاثة أمور: أوَّلها مفردات العلوم الحديثة ومصطلحاتها، وثانيها الازدواجية اللُّغوية، وثالثها الضّعف اللُّغوي. في صدد الأمر الأوَّل، يمكن الوضع أو الترجمة أو التعريب، وقد فعل أسلافنا ذلك مراعين شرطين: أوَّلهما الفصاحة، ويقضي بتحويل الصَّوت الأجنبي إلى صوت عربي، فحُوِّلت "q"، على سبيل المثال، إلى قاف، كما في موسيقى و"P" إلى فاء أو باء كما في فندق أو بندق، وثانيهما، في حالة التعريب، يتمُّ التَّحويل، إلى الصِّيغة الصرفية العربية، فتلفزيون، على سبيل المثال تحوَّل إلى تلفاز. وفي هذه الحالة يصبح اللفظ المعرب عربيّاً، كما ينبغي أن نشترط في هذا الزَّمن تنظيم الوضع والترجمة والتعريب، وهذا أمر مهمٌّ جداً ينبغي القيام به في أسرع وقت.

وفي صدد الأمرين الثاني والثالث يمكن تقديم الاقتراحات الآتية والعمل من أجل تنفيذها، وخصوصاً ما يحتاج منها إلى إصدار التشريعات القانونية في مجلس النوَّاب، وهذا أمر ممكن، فالمرسوم رقم 10227، تاريخ 8 أيار 1997، ينصُّ، لدى الحديث عن الأهداف العامَّة للمناهج على "تكوين المواطن الملتزم اللُّغة العربيَّة لغة وطنيَّة رسميَّة، والقادر على استخدامها بإتقان وفعالية في جميع المجالات".

إن اكتساب اللُّغة يتمُّ من طريق الممارسة، التي تجعلها سليقة، وليس من طريق القواعد. لذا، ينبغي توفير هذه الممارسة في البيت والمدرسة والجامعة والشارع... في البيت، توفَّر كتب المطالعة، وفي الأحياء تنتشر المكتبات العامَّة، ليصبح الكتاب في متناول الجميع، والآن صار ممكناً إيجاد مواقع على الشَّبكة تقدِّم أدب أطفال وأدباً تفاعلياً، وفي المدرسة يعدُّ المدرِّس الجيِّد، المختصّ، المتفرِّغ براتبٍ جيِّد وكاف، والقادر على استخدام طرائق تربوية حديثة، تعتمد قراءة النَّص الجميل، ومن ثمَّ التقعيد البسيط. وفي المدرسة ينبغي أن تتوافر حصص كافية لتعلُّم اللُّغة العربيَّة، وأن تخصَّص حصص للمطالعة والإملاء والخط والاستظهار، فتحفظ نماذج راقية من الأدب، وينبغي أن تتوافر صحافة حائط، ومكتبة للمطالعة وجوائز للمجيدين، ومهرجانات إبداع... وفي الشارع ينبغي أن تسمَّى الشوارع بأسماء عربيَّة، وأن تكتب الإعلانات وأسماء المحلات والشركات... بناءً لتشريع قانوني، بلغةٍ عربيَّة سليمة. ولا مانع من أن يوجد إلى جانب النَّص العربي نصٌّ أجنبي، وفي أماكن العمل، في المصارف والشركات ووسائل الاتصال ينبغي أن تعتمد اللُّغة العربية الفصحى لغة للتعامل والرَّسائل،

بموجب تشريع قانوني، وفي الوسائل المسموعة والمرئية ينبغي أن تعتمد العربية الفصحى، وخصوصاً في برامج الأطفال وتخصَّص برامج للغة، وفي الصحافة تستخدم لغة سليمة، ويخصَّص باب في الصفحة الثقافية للغة، وفي الجامعة، تعزز أقسام اللغة العربية بالأستاذ الجيد، المتمكِّن، والمتفرِّغ براتبٍ جيِّدٍ وكاف، وبالوسائل التعليميَّة اللازمة والكافية، وتلزم الأقسام الأخرى بتعليم مقرر اللُّغة العربية تعليماً حقيقياً، وفي المدارس الأجنبية تلزم المدارس التي تعتمد البرامج الأجنبية بتدريس اللغة العربيَّة...، وقد نطمح، أخيراً، إلى قيام قناة فضائية عربية مخصَّصة للغة العربيَّة الفصحى...